الصباح الإسلامية
09
العدد 2539 - السنة التاسعة
الخميس 8 ذي القعدة 1437 - الموافق 11 أغسطس 2016
Thursday 11 August 2016 - No.2539 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

عاقبة الظلم في ... الدنيا والآخرة

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو أيضًا عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل وفيه نوع من الجور؛ إذ هو انحراف عن العدل.

أنواع الظلم:

قال البعض: الظلم ثلاثة:

الأول - أن يظلم الناسُ فيما بينهم وبين الله تعالى:

وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (سورة لقمان:13)، وإياه قصد بقوله: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ (سورة هود:18).

الثاني - ظلم بينه وبين الناس:

وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشورى:40) ، وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة الشورى 42) .

الثالث - ظلم بين العبد وبين نفسه:

وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (سورة فاطر:32)، وقوله على لسان نبيه موسى: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ (سورة القصص:16)، وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهمُّ بالظلم فقد ظلم نفسه.

قال الذهبي: «الظلم يكون بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا، وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء». وقد عده من الكبائر. وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث التي تتوعد الظالمين، نقل عن بعض السلف قوله: «لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء». ثم عدد صورًا من الظلم منها: أخذ مال اليتيم - المماطلة بحق الإنسان مع القدرة على الوفاء - ظلم المرأة حقها من صداق ونفقة وكسوة - ظلم الأجير بعدم إعطائه الأجر. ومن الظلم البين الجور في القسمة أو تقويم الأشياء، وقد عدها ابن حجر ضمن الكبائر.

وقد وردت النصوص تذم الظلم:

قال تعالى: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدًا﴾ (سورة الكهف:59)، وقال سبحانه: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ (سورة الزخرف:76)، وقال: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ (سورة آل عمران:57)، وقال: ﴿ولا يظلم ربك أحدًا﴾ (سورة الكهف:49)، وقال: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (سورة فصلت:46)، وقال: ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ (سورة الشورى:45)، والآيات كثيرة في القرآن الكريم تبين ظلم العبد لنفسه، وأن هذا الظلم على نوعين: الشرك، وهو أعظم الظلم كما بينا، والمعاصي، قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ (سورة فاطر:32)، أما ظلم العبد لغيره بالعدوان على المال والنفس وغيرها، فهو المذكور في مثل قوله تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ (سورة الشورى:42).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ » (رواه البخاري ومسلم).

وفي الحديث: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (رواه مسلم).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لأبي سلمة بن عبد الرحمن، وكان بينه وبين الناس خصومة: يا أبا سلمة اجتنب الأرض ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» (رواه البخاري ومسلم).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا» (رواه الترمذي).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم كفل - نصيب - من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمُه وماله وعرضه» (رواه مسلم).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»، وكان معاوية رضي الله عنه يقول: «إني لأستحي أن أظلم من لا يجد على ناصرًا إلا الله». وقال أبو العيناء: «كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يدًا واحدة، فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرًا، فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، قلت: هم من فئة كثيرة، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

وقال يوسف بن أسباط: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام تَرادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه».

وقال أبو نور بن يزيد: «الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه».

وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم، لأوشك أن تخرب».

وقال بعض الحكماء: «اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رَخْبُ الذراعين سفاك الدماء، فإن له قاتلا لا يموت».

وكان يزيد بن حاتم يقول: «ما هبتُ شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبي الله، الله بيني وبينك».

وبكى عليّ بن الفضيل يومًا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة. ونادى رجل سليمان بن عبد الملك - وهو على المنبر -: يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ (سورة الأعراف:44).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إياك ودعوة المبتلى، ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام».

وقيل: إن الظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر، وظلم لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، نعوذ بالله تعالى من الشرك، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (سورة النساء:48)، وأما الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد بعضهم بعضا، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب، فظلم العبد نفسه.

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين، وإذا منادٍ ينادي، حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين.

وقيل: «من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره». ويقال: «من طال عدوانه زال سلطانه».

قال عمر رضي الله عنه: «واتقِ دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة».

وقال عليّ رضي الله عنه: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الحق حتى استشرى، وبسطوا الجور حتى اقتدى».

وقيل: «أظلم الناس من ظلم لغيره»؛ أي لمصلحة غيره.

وقال ابن الجوزي: «الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب، ولو استنار بنور الهدى لاعتبر».

وقال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة». ويروى: «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة».

من أسباب الظلم:

(أ) الشيطان: قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (سورة البقرة:208)، وقال: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ (سورة المجادلة:19).

(ب) النفس الأمارة بالسوء: قال تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (سورة يوسف:53).

(جـ) الهوى: قال تعالى: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ (سورة النساء:135)، وقال سبحانه: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ (سورة النازعات:40-41)، وقال جل وعلا: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾ (سورة الكهف:28)، والآيات كثيرة في هذا الباب.

أسباب تعين على ترك الظلم وتعالجه:

1 - تذكر تنزهه عزّ وجلّ عن الظلم: قال تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ (سورة فصلت:46)، وقال سبحانه: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ (سورة النساء:40)، وقال: ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ (سورة آل عمران:108).

2 - النظر في سوء عاقبة الظالمين: قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾ (سورة مريم:71-72)، وقال سبحانه: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (سورة هود:117)، وقال: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ (سورة الأنعام:47).

3 - عدم اليأس من رحمة الله: قال تعالى: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (سورة يوسف:87، وعن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يدنو المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله» (رواه مسلم)

وحديث الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، والذي قال: «لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين» (رواه البخاري ومسلم)، وغيره شاهد على هذا المعنى.

4 - استحضار مشهد فصل القضاء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ (سورة الزمر:68-70).

5 - الذكر والاستغفار: قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ (سورة آل عمران:135).

6 - كف النفس عن الظلم ورد الحقوق لأصحابها: فالتوبة النصوح أن يندم الإنسان بالقلب ويقلع بالجوارح، وأن يستغفر باللسان، ويسعى في إعطاء كل ذي حق حقه، فمن كانت لأخيه عنده مظلمة، من مال أو عرض، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات، كما صح بذلك الخبر.

بعض آثار الظلم ومضاره:

الظلم يجلب غضب الرب سبحانه، ويتسلط على الظالم بشتى أنواع العذاب، وهو يخرب الديار، وبسببه تنهار الدول، والظالم يُحرَمُ شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع أنواعها، وعدم الأخذ على يده يفسد الأمة، والظلم دليل على ظلمة القلب وقسوته، ويؤدي إلى صغار الظالم عند الله وذلته، وما ضاعت نعمة صاحب الجنتين إلا بظلمه. ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ (سورة الكهف:35-36)، وما دمرت الممالك إلا بسبب الظلم، قال تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (سورة الأنعام:45)، وقال تعالى عن فرعون: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ (سورة القصص:40)، وقال عن قوم لوط: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ (سورة هود:82-83).

وأهلك سبحانه قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة، وقال: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (سورة العنكبوت:40)، وندم الظالم وتحسره بعد فوات الأوان لا ينفع، قال تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ (سورة الفرقان:27).

والظلم من المعاصي التي تعجل عقوبتها في الدنيا، فهو متعد للغير وكيف تقوم للظالم قائمة إذا ارتفعت أكف الضراعة من المظلوم، فقال الله عزّ وجل: «وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

فاتقِ الله وأنصف من نفسك، وسارع برد المظالم لأصحابها، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

قال أبو العتاهية:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله من الملوم

غزوة بني قينقاع

كان في داخل المدينة المنورة ثلاث قبائل لليهود: قبيلة بني قينقاع، وقبيلة بني النضير، وقبيلة بني قريظة؛ وفي شمال المدينة المنورة يقع تجمع ضخم لليهود هو تجمع خيبر.

وقد أقام رسول الله معاهدة مع اليهود، وقد حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يخالفوا هذه المعاهدات، وأن ينقضوا الميثاق، وتحدثوا كثيرًا بالسوء، ليس فقط عن الصحابة ، وليس فقط عن رسول الله ، بل عن ربِّ العالمين I، وتطاولوا كثيرًا في هذه الكلمات، لكن الرسول كان يضبط النفس، ويتحكم قدر المستطاع في أن يمنع الصحابة من الصدام المباشر مع اليهود؛ لأن الوضع في المدينة المنورة لم يكن مستقرًا.

لكن بعد انتصار الرسول والمسلمين في بدر، رجع وهو يرفع رأسه بعزة وقوة وبأس، ومما لا شك فيه أن ذلك أرهب معظم الجزيرة العربية، لكن ردَّ فعل اليهود كان غريبًا.

غدر بني قينقاع:

عندما دخل الرسول المدينة، جمع يهود بني قينقاع وحذرهم من مغبَّة الطغيان والمخالفة المستمرة التي كانوا عليها، وقال لهم : «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا». وهو بذلك لا يكرههم على الإسلام أو على الإيمان، لكنه يوضح لهم أن قريشا لما ظاهرت على أمر الله أذلها الله .

وهذا الأمر له بوادر كثيرة عند اليهود، فهم -دائمًا- يخالفون ويسيئون الأدب مع الأنبياء، بل ومع رب العالمين I.

لكن ردَّ فعل بني قينقاع كان عنيفًا للغاية؛ ففي سنن أبي داود عن ابن عباس قال: «لما أصاب رسول الله قريشا يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا». قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا» [1].

فهذا إعلان واضح وصريح من اليهود بالحرب، ومخالفة صريحة وواضحة لبنود المعاهدة التي تنصُّ على وقف الحرب بين الطائفتين، بل وتجعل من الواجب على اليهود أن يناصروا المسلمين في حربهم ضد من يغزو المدينة المنورة، سواء من قريش أو من غيرها، فهذه بدايات انشقاقات كبيرة داخل المدينة المنورة، ويصرِّحون بأنهم على استعداد لحرب الرسول ويهددونه ويتوعدونه بذلك. وضعُ ذلك كله مع مواقف اليهود خلال السنتين السابقتين لهذا الموقف من التكذيب المستمر، والاعتداء بالباطل على المسلمين وعلى آيات الله وكلام الحبيب .

لقد قال يهود بني قينقاع هذا الكلام، أنزل الله في ذلك آيات بينات توضح العلاقة بين المسلمين واليهود خلال الفترة القادمة، قال الله : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:12].

وقد نزلت هذه الآيات في بني قينقاع: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:13].

ولأن بصائر اليهود مطموسة تمامًا، لم يفقهوا هذه الآيات ولم يهتموا بها، فكان هذا هو الموقف بين اليهود والمسلمين، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تصاعد الأمر.

امرأة من المسلمين قدمت إلى سوق بني قينقاع، وجلست إلى أحد الصاغة اليهود تبيع وتشتري منه، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها، ورفضت المرأة المسلمة ذلك، فجاء أحد اليهود من خلفها وربط طرف ثوبها برأسها دون أن تشعر، وعندما وقفت انكشفت المرأة فصرخت، فجاء أحد المسلمين وقتل اليهوديَّ الذي فعل ذلك، فاجتمع يهود بني قينقاع على المسلم وقتلوه، فكانت هذه بوادر أزمة ضخمة في داخل المدينة المنورة، فقد اجتمعت قبيلة بني قينقاع على قتل المسلم، بعد أن قاموا بجريمة كشف عورة المرأة المسلمة.

دولة كاملة تتحرك لأجل امرأة واحدة

وصل الأمر إلى رسول الله ، وعلى الفور جمع الصحابة وجهَّز جيشًا، وانتقل سريعًا إلى حصون بني قينقاع، وحاصر الحصون وفي داخلها بنو قينقاع، وأصرَّ على استكمال الحصار حتى ينزل اليهود على أمره .

وقد حرَّك رسول الله هذا الجيش بكامله من أجل ان امرأة واحدة كشفت عورتها، وما يؤلمني كثيرًا ليس فقط ما أرى من كشف عورات المسلمات في بقاع الأرض وفي أماكن كثيرة من العالم، ولكن تنتهك الحرمات إلى درجات القتل، وإلى درجة الاعتداء على المرأة، وأمور يستحي الإنسان من ذكرها، يحدث هذا كله ولا تتحرك جيوش المسلمين.

ونلاحظ في موقف النبي مدى عزة وكرامة الدولة الإسلامية، فقد حدث نوع من الامتهان لهذه الكرامة بهذه العملية الفاجرة من اليهود، فأخذ النبي الأمر بمنتهى الجدية، وانتقل بجيشه إلى حصار بني قينقاع مع احتمال سقوط دماء كثيرة؛ نتيجة القتال مع بني قينقاع وهم من أصحاب السلاح والقلاع والحصون والبأس الشديد في الحرب، وقد رأى رسول الله أن كل هذا ثمن رخيص للغاية في مقابل حفظ كرامة الدولة الإسلامية.

وبدأ الحصار في يوم السبت نصف شوال سنة 2هـ بعد اقل من شهر من غزوة بدر الكبرى، وظل محاصرًا لبني قينقاع أسبوعين كاملين، إلى أن ظهر هلال ذي القعدة، وقذف الله الرعب في قلوب اليهود، فنزلوا على حكم الرسول ، وكان حكمه في ذلك الوقت هو قتلهم لهذه المخالفة الشنيعة التي فعلوها، ليس فقط لكشف وجه المرأة المسلمة، ولا لقتل المسلم، لكنها تراكمات طويلة جدًا، فهم منذ أن دخل الرسول وهم في مخالفات مستمرة، وسبَّ علنيّ لله ولرسوله الكريم ، وللصحابة وإثارة الفتن بين المسلمين، فكان لا بد من وقفة معهم.

واقعية المنهج الإسلامي:

وجد الرسول في هذا الوقت أن قوة المسلمين تسمح بردع اليهود، فانتقل إلى حصارهم وقتالهم، وإذا قارنا هذا الموقف مع موقف سابق مرَّ بنا في العهد المكي؛ وهو قتل السيدة سميَّة أم عمار بن ياسر ، وأبقى النبي بقوله: «صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة» [2].

ولم يتحرك مجموعة الشباب المسلم الذي كان موجودًا في فترة مكة لقتال أبي جهل؛ لأنه يعلم أن القوة الإسلامية لا تسمح بهذا الأمر في ذلك الوقت، لكن الآن فرض القتال على المسلمين وأمر به، بل وقوة المسلمين تسمح بهذا الأمر، فاختار الرسول هذا القرار.

فإذا أردنا أن نتأسى به في علاقاتنا مع المشركين أو مع اليهود أو مع أعداء الأمة بصفة عامة، فعلينا أن ندرس جيدًا الموقف الذي أخذ فيه الرسول القرار، أيًا كان هذا القرار.

النفاق يتعانق:

نزل اليهود على حكم رسول الله ، وخرجوا من حصونهم، وكان القرار هو قتل بني قينقاع.

وهنا جاء عبد الله بن أبي بن سلول، ولم يكن قد أسلم إلا منذ أيام قليلة، فهو لم يسلم إلا بعد بدر، وكان حليفًا لبني قينقاع، وطلب من الرسول أن يحسن في مواليه بني قينقاع، ورفض رسول الله ذلك؛ لأن ما فعلوه إنما هو جريمة عسكرية كبرى، وفتنة كبيرة تحدث في المدينة، وقد أخذ الرسول القرار، فكرَّر ابنُ أبيّ ما يريد مرة وثانية وثالثة، ثم أدخل يده في جيب درع رسول الله ، فقال له الرسول : «أرسلني». وغضب غضبًا شديدًا، وقال له: «ويحك! أرسلني». لكن هذا المنافق أصرَّ على إمساك الرسول ، وقال له: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر» [3].

قال ابن أبيّ هذا الكلام هكذا بمنتهى الصراحة، فقد كان هذا المنافق حليفًا لبني قينقاع، وكان لهم جيش قوامه سبعمائة رجل: أربعمائة حاسر (أي: من غير دروع)، وثلاثمائة دارع، وهؤلاء السبعمائة قد منعوه -كما يقول- من الأحمر والأسود. فهذه -إذن- هي القوة الأساسية المساعدة لعبد الله بن أبيّ زعيم الخزرج قبل أن يأتي الرسول ، وهذه القوة تمنعه من كل الناس، ورسول الله قد قرر أن يقتلهم جميعًا في لحظة واحدة. ويقول المنافق: وربما تدور الدوائر على المدينة بعد ذلك فلا أجد من يحميني. فهو لم يفكر في الرسول ، ولم يفكر في الجيش الإسلامي، ولم يفكر في انتصاره، وإنما كان تفكيره في عقائده الجاهلية التي كان عليها، وكانت علاقته باليهود أشد توثيقًا من علاقته برسول الله ، ومع ذلك كان يعذره رسول الله ؛ لأنه كان ما زال حديث الإسلام، وكان النبي يؤوِّل كثيرًا فيه، وخاصة أن خلفه مجموعة كبيرة من الناس، فعامله بالحسنى في هذا الموقف، وقبل منه أن يفتدي هؤلاء، ولكن النبي اشترط أن يترك اليهود من بني قينقاع المدينة المنورة بكاملهم، وقبل اليهود بذلك، وخرجوا من المدينة المنورة إلى منطقة تسمى (أذرعات) بالشام، ويقال: إنهم قد ظلوا هناك بعد فترة وجيزة. وبهذا انتهت قصة بني قينقاع من المدينة المنورة.

وقفات مع جلاء بني قينقاع:

اختيار التوقيت المناسب للقرار:

لم يقف رسول الله هذه الوقفة الجادة والقوية مع اليهود، إلا بعد أن اطمأنَّ تمامًا على قوة المسلمين اقتصاديًا وعسكريًا، فقد أصبح السوق الإسلامي موجودًا وقويًا، بينما كانت التجارة في السابق في سوق بني قينقاع، وتخيَّل كيف يكون الحال إذا كانت التجارة معتمدة على بني قينقاع حتى هذا الوقت، لكن الرسول أمَّن هذا الجانب من أول أمره، ومنذ وصوله إلى المدينة المنورة.

أصبح الماء -أيضا- ملكًا للمسلمين، وقد كان في السابق لليهود، ونعرف جميعًا قصة بئر رومة.

والجيش المسلم يعتمد اعتمادًا كليًا على أفراده، لا يعتمد على معونات خارجية، ولا على أي مساعدات من خارج المهاجرين والأنصار، بينما كان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يعتمد على اليهود في حمايته، وكان هذا الوضع مؤهلًا لرسول الله أن يأخذ قرار الحرب بسهولة.

لم يتساهل الرسول مطلقًا مع اليهود بعد موقفهم مع المرأة المسلمة، ومع الرجل المسلم الذي قتل، وكان ما فعله اليهود مخالفة صريحة للمعاهدة المبرمة بينهم وبين رسول الله ، ولو سكت الرسول على مخالفة اليهود للمعاهدة المرة تلو الأخرى؛ فإن اليهود من دون شك سيزيدون من تطاولهم، ويدخلون في مرحلة أخرى من الاستهزاء بالدولة الإسلامية وكرامة الأمة الإسلامية.

اليهود بين الأمس واليوم:

من طبائع اليهود الثابتة التي لا يفكون عنها بحال من الأحوال: التطاول الدائم واتخاذ المواقف المعادية كلما زاد سكوت المسلمين عن مخالفاتهم، وقد رأينا هذا في اليهود قديمًا وحديثًا، وسنظل نراه منهم إلى يوم القيامة.

رأينا في العصر الحديث عندما خالف اليهود القوانين الإسلامية، وبدءوا بالهجرة إلى فلسطين مع أن هذا الأمر كان ممنوعًا عليهم، ولكن لأن المسلمين سكتوا عن هذا الأمر، تملَّك اليهود الاقتصاد الفلسطيني في داخل فلسطين كلها، ومع سكوت المسلمين استقدم اليهود السلاح الخفيف إلى داخل فلسطين، ثم استقدموا السلاح الثقيل، ومع استمرار سكوت المسلمين جاء قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين اليهود والمسلمين، ثَمَّ إقامة إسرائيل سنة 1948م، وحرب 1956م، 1967م، 1982م في لبنان، وهكذا كلما سكت المسلمون أخذ اليهود جزءًا أكبر.

كنا في الماضي نطالب بالعودة إلى حدود التقسيم، ثم بعد ذلك نطالب بالعودة إلى حدود 67، ثم نطالب بالعودة إلى حدود الانتفاضة، وإذا كان اليهود اليوم يقيمون جدارًا عازلًا، فإننا ربما نطالب في المستقبل بالعودة إلى حدود الجدار العازل.

فهذا التساهل مع اليهود هو الذي أدى إلى ما آلت إليه أحوالنا اليوم.

وقد تجنب الرسول كل هذه المآساة، وأخذ قرارًا سريعًا وحاسمًا بحصار بني قينقاع، ومعاقبتهم بالطريقة التي شرعت في المعاهدة التي بينه وبينهم قبل ذلك بسنتين.

قوة العلاقة بين اليهود والمنافقين:

هذا هو الملمح الثالث الذي نلاحظه في قضية بني قينقاع، فمع أن المنافقين لا يختلفون عن المسلمين في أسمائهم وأشكالهم، إلا أنهم يتعاملون مع اليهود بمنتهى الحمية والقوة؛ وذلك لأنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام. وقد استغل اليهود هذه العلاقة في أيام رسول الله وبعد أيامه ، وإلى زماننا الآن وإلى يوم القيامة، علاقة وطيدة وأكيدة بين اليهود والمنافقين، وهذا ما أخبر به الله في كتابه بتعبير واضح وعجيب جدًا، قال الله تعالى: ﴿ألَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر:11].

فجعل الله المنافقين إخوانًا للذين كفروا من أهل الكتاب، فهذا الأمر في غاية الوضوح في كتاب رب العالمين I، وفي خطوات النبي ، وفي سيرته العطرة كما نرى، فكان هذا ما فعله الرسول مع بني قينقاع.